العدد (1448) السنة السادسة - الاربعاء (4) اذار 2009 ◆ http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com

التعليم الجامعي بين عام مضى وآخر في المنتصف:

الهيئات التدريسية بحاجة الى دورات تطويرية

أكد كثير من الاكاديميين والمتخصصين بمسيرة التعليم العالي في البلد على ضرورة ان يكون التعليم ملبيا لاحتياجات المجتمع. وتقع ضمن هذه المسؤولية الوطنية والانسانية مراكز البحوث العلمية، لكن السؤال الاكبر هو كيف يتم ذلك. في العام الدراسي المنصرم كانت ثمة خطوات للارتقاء بمستوى التعليم الجامعي، بما فيها، اقرار قانون الخدمة الجامعية الذي منح التدريسيين بعضا من امتيازات كانوا قد فقدوها في السنوات التي اعقبت الاطاحة بالنظام السابق، وقانون التقاعد، والمكتبة الالكترونية، ومؤتمرات استقطاب الكفاءات المهاجرة، وغيرها من الخطوات المهمة. فهل كان العام الماضي عاما لاستكمال اجراءات النهوض وتهيئة مستلزماته؟ او ان العام الدراسي الحالي هو افضل من سابقه؟

رئيس قسم الهندسة الكهروميكانيكية

المناهج الدراسية ثابتة، ويتم تحديدها من رئاسة الجامعة وبالتعاون مع وزارة التعليم العالي والبحث العلمي. ومن الصعب جدا تغيير المناهج كل عام، الا ان المتبع هو وضع خطة لكل خمس سنوات، فاذا تطلب الامر اجراء تحديثات معينة دعما للعملية التعليمية، ذلك لان المناهج الدراسية في الجامعة هي دراسة اسس

بغداد/ شاكر المياح

تلك الاسئلة وغيرها طرحناها على بعض التدريسيين والطلبة في الجامعة التكنولوجية، فكان لقاؤنا الاول مع«معاون رئيس قسم الهندسة الكهروميكانيكية، الحائز على الدكتوراه في الهندسة الميكانيكية من الجامعة التكنولوجية وسألناه: ماالذي يميز العام الدراسي الحالي عن العام الماضي من النواحي العلمية والمناهج الدراسية وانتظام دوام الطلبة؟ فرد قائلا: «قسم الهندسة الكهروميكانيكية الحالي كان يسمى في العام الماضي«قسم التعليم التكنولوجي» الذي سعى الى مزج تكنولوجيا التعليم والدراسة الهندسية، ونظرا لانتفاء الحاجة الى هذا الاختصاص فقد ارتأت رئاسة القسم، وطبقا للمتغيرات التي حصلت في البلاد، وبغية التواصل مع معطيات هذه المتغيرات والنزوع نحو تطور التعليم العالي باستحداث تخصصات جديدة تتماهى مع ما هو حاصل في جامعات الدول المتقدمة، وتغيير تخصص القسم السابق الى تخصص» الهندسة الكهروميكانيكة». ويوضح أن هنا القسم مهمته الربط بين دراستي» الكهرباء والميكانيك» والمهندس المتخرج فيه هو مهندس يحمل مواصفات» مهندس الكهرباء ومهندس الميكانيك» ، ويمكن الافادة منه في محطات توليد الطاقة الكهربائية، وفي المجالات البحرية، والربط بين الكهرباء والميكاني» . ويوضح رئيس القسم قائلا:»نحن الان نركز تحديدا على موضوع محطات توليد الكهرباء، لان العراق بحاجة ماسة لمثل هذه التخصصات، وهذا القسم وبتقديري الشخصي يعد نقلة نوعية مهمة في مفردات التعليم العالي. سابقا كانت معدلات الطلبة الذين سيقبلون في القسم السابق لاتتجاوز٨٠٪، اما بعد تحديث تخصص القسم فقد ارتفع معدل القبول فيه الى ٩٠٪، وقسمنا قد فاق اقساما علمية اخرى في مختلف الجامعات العراقية، بموضوعة القبول على وفق المعدلات. وهذه نقلة علمية نوعية تتمثل في المستوى العلمي العالي للطلبة المقبولين في قسمنا. حتى نحافظ على هذا المستولى من النوعية لا بد من جعل عدد الصفوف الدراسية متوائما مع عدد الطلاب في الصف الواحد. ففي العام المنصرم كان الصف الواحد يضم ٦٠ –الى ٨٠ طالبا، في حين ان الصف الواحد في العام الحالي لايربو على«٤٠» طالبا. هذا، وبتقديري الشخصي سيمنحنا فرصة لتحقيق ما نصبوا اليه مستقبلا من تخريج مهندسين بهذا التخصص، يكونون قادرين على تلبية متطلبات المجتمع بمستويات علمية عالية.

وعن سؤالنا حول المستوى العلمي للطلبة بعد نصف السنة الدراسية الراهنة، أجاب» المعضلة التي نعانيها تكمن في عدم انتظام دوام الطلبة بدعاوى عديدة، ذلك لان تذبذب دوام الطلبة سيؤثر سلبا في مستوى الطالب العلمي من خلال فقدانه للكثير من مستلزمات المعرفة، ومن ادوات تفوقه واكتسابه للمعرفة. وكلنا نعرف ان طالب الهندسة لايمكن مقارنته بطالب الاداب او التاريخ لان مايترتب على خطأ طالب التاريخ ليس هو مايترتب على الطالب في الهندسة الذي يصمم بناء لعمارة قد تنهار على ساكنيها نتيجة خطأ هندسي علمي. بعض طلبة قسمنا الذين يتغيبون يحاولون تعويض المحاضرات التدريسية اليومية من خلال المحاضرات الخارجية، واعني به التدريس الخصوصي الذي نقف بالضد منه جملة وتفصيلا، الا اننا وفي ظروف معينة نتفق معه في الحجة ونلتمس له العذر، وخاصة عند غلق الطرقات، والتي لم تكن يوما ما سالكة على الدوام. وهذا مايلزمنا الحجة بالاعتراف بتأخر الطلبة عن موعد الدراسة، ومع هذا مازلنا نشدد على حضور الطالب محاضرته في وقتها المحدد، بعيدا عن الاعذار والمحددات الحقيقية. نحن كوننا تدريسيين نقدر مثل هذه المواقف ولكننا وفي العام الحالي نحاول قدر الامكان ان نقلل من اهمية هذه الاعذار، لاسيما بعد التحسن الامني الملموس، واستقرار الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية. ما يلزمنا بقبول اعذار الطالب، مايكتنف حياتنا من شكوك وحذر وريبة وخوف. وحول المناهج الدراسية فيما اذا حصل فيها تغيير هذا العام؟ قال رئيس القسم: نعم، حصل تغير واضح في المناهج الدراسية، والدليل على ذلك، التغير الواقعي في قسمنا. تغير المنهج يعتمد بالدرجة الاساس على قرار من» مجلس القسم» وعلى وفق صيغة» زمن محددة» بأربع سنوات». وبما ان القسم تم تحديثه وكما اسلفت، فان المناهج قد روعيت فيها اهم مراحل التطور التقني، والهندسي في الجامعات العالمية المتقدمة ذات التخصصات القريبة من تخصص القسم، وعليه فأن المناهج الدراسية التي اقرت هذا العالم، هي مزيج من مناهج لجامعات عالمية متعددة».

خطة خمسية لتحديث المناهج

بعد ذلك التقينا التدريسي» الدكتور قيس عبدالامير الطائي» وسألناه السؤال ذاته حول اختلاف العام الدراسي الحالي عن الاعوام السابقة من حيث المناهج الدراسية، والمستوى العلمي للطلبة، وأداء التدريسيين، فأجاب قائلا: » المناهج الدراسية ثابتة، ويتم تحديدها من رئاسة الجامعة وبالتعاون مع وزارة التعليم العالي والبحث العلمي. ومن الصعب جدا تغيير المناهج كل عام، الا ان المتبع هو وضع خطة لكل خمس سنوات، فاذا تطلب الامر اجراء تحديثات معينة دعما للعملية التعليمية، فهو مسموح به ولكن بنسبة محددة، ذلك لان الدراسة في الجامعة هي دراسة اسس، وهذه من الصعب بمكان تغييرها». وسألناه أيضا: ما تقييمكم للمستوى العلمي للطلبة خلال العام الماضي والحالي؟ فقال:»حتى يتسنى لنا تقييم المستوى العلمي» للطلبة فلا بد من الاعتماد على شريحة منهم، لان المستوى العلمي للطالب تتحكم به اتجاهات عدة منها دافعية الطالب للتعلم، ورغبته في المكان الذي يشغله، وماذا سيتحقق له بعد التخرج «فهو يعتقد وعلى الدوام بأن دراسته هي الطريق نحو الوظيفة المستقبلية، فحينما يدرس الهندسة فلابد اذن ان يعمل مهندسا عند التخرج. وهو يدرس التربية فيجب ان يعمل مدرسا وهكذا، هذا مفهوم شائع بين جميع الطلبة. لا اكشف سرا لو قلت بأن اغلب طلبتنا في حيرة مستبدة ناجمة عن القلق الذي ينتابهم عند التطرق الى مستقبلهم، فهم يتطلعون الى التعيين بمؤسسات الدولة الرسمية، دون ان يأخذوا بعين الاعتبار العمل في انشطة القطاع الخاص الا ماندر. هذا لا اسميه تدنيا في المستوى العلمي، بل هو عامل ربما يضعف رغبته في الدراسة، ويضع امامه تساؤلا قد يكون محقا فيه. كيف يبحث عن مجالات اخرى، ويعد دراسته عاملا مكملا لما سيكون عليه مستقبلا، وعلى وفق الشهادة التي سيحصل عليها. ومن ناحية أداء التدريسيين فهو دائم الاهتمام بموضوع محاضرته، ومواكبة التطور العلمي في عموم الجامعات العالمية، وهذا يعني التواصل مع احدث ماتوصل اليه الانسان في الدول المتقدمة. التدريسي العراقي، وفي الوقت الراهن، يعاني ظاهرة اسميها «قلة الاطلاع» وعليه لابد من الاكثار من الدورات التطويرية والمهارية والعلمية، وذلك لزج عدد من التدريسيين فيها سواء من داخل العراق او خارجه لان» الانترنت والمكتبة الكترونية» ليسا كافيين لتطوير كفاءة الاستاذ الجامعي. انه بحاجة لان يلتقي بنظراء له في الاختصاص ذاته واصل مع المنجزات العلمية والاطلاع على المستجدات فيها. صحيح ان الوزارة جادة في تحقيق ما يصبواليه الاستاذ الجامعي، الا ان سعيها مايزال بطيئا، مع وجود المكتبة الالكترونية»الافتراضية» التي توفرللاستاذ مصادر علمية لاحصر لها، الا ان الطموح يظل اكبر وتتسع مساحاته يوما بعد اخر. نحن نحتاج العالم المتحضر مثلما هو يحتاجنا، ولابد من الخروج لرؤية الاخرين كيف يعملون، وان نطلع على مسيرتهم العلمية والتعليمية وادواتهم التدريسية، وهذا لايتحقق الابالزمالات والزيارات والدورات التطويرية. ان»جامعاتنا مايزال ارتباطها اكاديميا، والبحوث التي نقدمها هي في اغلبها لاتخرج عن كونها اجتهادا شخصيا، في الوقت الذي تعمل الجامعات المتطورة بهيئة»استثمار» او هي ضمن نشاط شركات الاستثمار، كأن تكون احدى هذه الشركات بحاجة الى اجراء بحث او تروم تطوير احد منتجاتها. فتعرض البحث او المنتج على الجامعة ذات الاختصاص وتضع له ميزانية مالية، وما على الجامعة سوى دراسة البحث وآلية تطوير المنتج، ومن ثم تسلمها النتائج كاملة سواء الايجابية منها او السلبية. وكذلك تحدد مستوى الربح او الخسارة في آن معا، هذا غير موجود في الجامعات العراقية باستثناء بعض الدوائر التنفيذية مثل وزارات الصناعة والمعادن، والاسكان، والزراعة.

اما زميلته (رشا) فقد ذكرت بانها وصلت الى المرحلة الثالثة الا انها فوجئت بقبولها في المرحلة الاولى قسم البرامجيات فتوضح ظروف التدريس بالقول: كان ذلك بسبب مايطلق عليها بالمقاصة الدراسية التي سلبت من عمري سنتين دراسيتين، وبدعوى ان الدروس في جامعة الزيتونة غير متشابهة، واذا كان هذا يفوق نسبة ٧٠٪فان معادلة الدراسة لن تكون في مصلحة الطالب العائد. هذه ليست قضيتي وحدي بل قضية تشمل طلابا كثيرين. قدمت عدة طلبات لاعادة النظر في موضوعة» المقاصة»الاانها لم تتلق اي رد من الجهات ذات العلاقة، وبالاخص مجلس الجامعة التكنولوجية. ان المقاصة انتهكت حقوق جميع الطلبة الذين كانوا يدرسون في دول الجوار او الدول الاخرى.

المقاصة الدراسية انتهاك لحقوق الطلبة

ونحن نتجول بين اروقة الجامعة التقينا عددا من الطلبة منهم الطالب»احمد عبد الكريم قاسم» المرحلة الثانية قسم»الليزر» الذي قال:» لااستطيع الان ان اقيم ما هو الافضل العام الماضي ام الحالي، ذلك لاننا قد انهينا للتو امتحانات الفصل الاول. انا احد الطلبة الذين لحق بهم غبن كبير في العام الدراسي الماضي، اذ كنت ناجحا في كل الدروس باستثناء درس واحد كنت مكملا فيه وقد امتحنت فيه بالدور الاول والثاني والثالث ولم انجح. وانا اتساءل الان: هل انا المقصر في هذا؟ أو الخلل في نمط الاسئلة الموضوعة أو طبيعة التدريس في الجامعة؟» ويسترسل فيقول بتلقائية ظاهرة:» يجب ان نحاسب انفسنا، فأنا لم اكن مثابرا في الدور الاول، وكذلك هو الحال في الدورين الثاني والثالث، والذي ينجح بتقدير جيد جدا اوجيد او مقبول فهل من المعقول ان يتوقف مصير الطالب على مادة واحدة؟» ويوضح أيضا: هناك بعض الطلبة اكملوا بخمسة دروس نجحوا في ثلاثة منها، وحملوا درسين. وطالب مكمل بدرس واحد جرى تحميله اياه، نجحت في كل الدروس الا في درس الرياضيات فقد كنت مكملا فيه، في حين زميلي الاخر الذي كان مكملا في خمسة دروس نجح في ثلاثة وحمل درسين فهل يجري التعامل معنا بذات الاسلوب؟ تعامل التدريسيون مع الطلبة كان ومايزال جيدا، واساليب التدريس اضحت ممتازة، وتتسم بالعلمية العالية والحرص الشديد على ايصال المادة للطلبة بشكل يؤمن الفهم الكامل للموضوع. الطالب»محمد ضيغم» في المرحلة الثانية قسم»الكهروميكانيك» قال:» في هذا العام شهدنا شيئا من التشديد ازاء الدوام والالتزام بحضور المحاضرات، كذلك في اداء الامتحانات، عكس العام الماضي اذ لم يعد هناك تساهل واضح مع الطلبة، سعيا من الهيئات التدريسية لترصين العملية التعليمية، ولكن يجب مراعاة ظروف الطلبة المعيشية والاجتماعية والنفسية.

الطالبة «غيداء احمد علي» المرحلة الثالثة قسم البرامجيات قالت» الاختلاف بين الدراسة في العام الماضي والعام الحالي بدا لنا كبيرا. ففي العام الحالي لمسنا تطورا ملحوضا سواء في اساليب التدريس او القاء المحاضرات بأوقاتها المحددة وضبط انتظام الدوام والحرص على استيعاب المواد التدريسية، وهذا ما يعزز المسيرة التعليمية بشكل عام. نحن كوننا طلبة مع التوجه الجاد لترصين التعليم العالي في العراق. لا استطيع ان اقلل من جهود اساتذتنا وهم يبذلون اقصى ما لديهم من امكانات وخبرات ومعارف وعلوم، من اجل الارتقاء بالمستوى العلمي للطلبة، في الوقت الذي نهيب ببعض الاساتذة ان يحسنوا اداءهم ويطوروا امكاناتهم وكفاءاتهم العلمية».

والتقينا مجموعة الطلبة من بينهم احد المتخرجين في العام الماضي اسمه (عماد قيس عصام) وسألناه لم انت هنا ؟! فضج الجميع بالضحك لما قال : تركت قلبي في العام الماضي وها انا اعود لالتقيه. ثم عدل وقفته قائلا: لم يختلف العام الحالي عن الذي سبقه، فمن الناحية العلمية فان المناهج هي ذاتها والاساتذه هم ذاتهم باستثناء اولئك الذين هاجروا الى خارج العراق، او انهم استقروا في اقليم كوردستان. وبشكل عام فان الدراسة لم تختلف عن ذي قبل عدا التشديد على الدوام وتسجيل الغيابات، وفي اداء الامتحانات وجدية التعليم ووضع الدرجات بحسب المستحقات الامتحانية. ويشير الى ان اكثر الاساتذه هم من المعيدين، المعينين حديثاً، ومن الطبيعي ان تكون خبرتهم متواضعة وكفاءاتهم يعتريها الضعف . اما زميلته (رشا) فقد ذكرت بانها وصلت الى المرحلة الثالثة الا انها فوجئت بقبولها في المرحلة الاولى قسم البرامجيات فتوضح ظروف التدريس بالقول: كان ذلك بسبب مايطلق عليها بالمقاصة الدراسية التي سلبت من عمري سنتين دراسيتين، وبدعوى ان الدروس في جامعة الزيتونة غير متشابهة، واذا كان هذا يفوق نسبة ٧٠٪فان معادلة الدراسة لن تكون في مصلحة الطالب العائد. هذه ليست قضيتي وحدي بل قضية تشمل طلابا كثيرين. قدمت عدة طلبات لاعادة النظر في موضوعة» المقاصة»الاانها لم تتلق اي رد من الجهات ذات العلاقة، وبالاخص مجلس الجامعة التكنولوجية. ان المقاصة انتهكت حقوق جميع الطلبة الذين كانوا يدرسون في دول الجوار او الدول الاخرى.

مركز البحوث البيئية»ورعاية العلماء»

بعد ذلك انتقلنا الى مركز البحوث البيئية التابع للجامعة التكنولوجية، والتقينا اولا الباحث» الدكتور عبد الحميد العبيدي» الذي حدثنا قائلا»بالنسبة لمركزنا البحثي فان العام الحالي هو الافضل بين الاعوام السابقة، لسبب رئيس هو ان وزارة التعليم العالي لديها برنامج يسمى»رعاية العلماء» والمخصص لدعم السنوات الماضية. ففي مركزنا مثلا تم اقرار ثمانية عشر مشروعا بحثيا، وتم رصد ميزانية خاصة بها، ومن خلالها تم شراء معدات وأجهزة ومستلزمات مختبرية. اذا يمكننا القول بان حركة البحث العلمي في هذا العام قد نشطت بشكل ملحوظ. اما في الجانب الآخر فان الاستقرار وتحسن الوضع الامني انعكسا ايجابا على مجمل نشاطاتنا في المجالات البيئية، لان البحث البيئي لايستلزم منا عملا مكتبيا، بل يتطلب النزول الى الشارع والانفتاح على المناطق والقيام بسفرات وجولات حقلية. وبالتالي اتيحت لنا فرص عديدة للقيام بمثل هذه الانشطة وأخذ عينات، وفحص الملوثات في مناطق مختلفة ومواقع عديدة، كان البعض منها يمثل بؤرا خطرة يتعذر الوصول اليها. يوم امس على سبيل المثال، زرنا موقعا للطمر الصحي في منطقة»ركية» الواقع شمال التاجي، وأخذنا عينات بيئية منه برفقة بعض الزميلات البيئيات اللواتي اطلعن على كيفية اجراء عمليات» الطمر الصحي» وكميات النفايات التي تنقل من بغداد، ومدى تأثيراتها في المناطق المحيطة. الاستقرار اسهم بشكل حقيقي في تفعيل موضوعات البحث العلمي، وبشكل عام فان العام الدراسي الحالي افضل بكثير من العام الماضي، واتوقع ان تكون الاعوام المقبلة في تحسن دائم. اما الجانب الثالث فانه يكمن في اهتمامات الدولة في طور التحسن والتطور، ففي السابق مثلا كان اهتمامها ينصب على تحسين الوضع الامني، اما الان فان لديها فسحة اكبر للتحرك باتجاه القطاعات الاخرى كموضوع الاعمار والاهتمام بالعلم والعلماء والمعارف، وهذا مؤشر واضح بان العام الدراسي الحالي هو احسن من الاعوام السابقة، فضلا عن السعي لتصحيح مسارات التربية والتعليم في العراق». وعن مدى تأثير الخدمة الجامعية في تحفيز الباحثين، رد قائلا» بالتأكيد فان تفعيل قانون الخدمة الجامعية كان له الاثر الكبير في تحفيز واستنهاض الباحثين واساتذة الجامعات، مع ان القانون يمثل حقا مكتسبا لانه كان معمولا به قبل٢٠٠٣/٣/٩ ، وبعد هذا التاريخ وقع ظلم واضح على الهيئات التدريسية بسبب ايقاف العمل به. اما الآن فان جميع الاستحقاقات قد عادت لعموم التدريسيين ، وحتما سيكون هذا دافعا قويا لاعضاء هذه الهيئات في العمل الدؤوب والبحث الرصين، وحافزا ايضا لعودة التدريسيين العاملين في الخارج، لان الوضع المادي والمعاشي للتدريسيين يضاهي ما ينعم به اقرانهم في دول الجوار، وبالتالي ينتفي السبب الذي دفعهم الى الهجرة ناهيك عن الاستقرار الامني والقضاء على العنف الطائفي».

لقاؤنا التالي كان مع الباحث» الدكتور صديق الحيالي» الذي بدأ حديثه بالقول» نحن لاننكر بأن الامور في العراق تسير بأتجاه التحسن، ولكوننا نتعامل مع العلم لانقول من المؤكد، بل من المحتمل جدا ان يكون الوضع في هذا العام افضل بكثير من العام الماضي وبدلالة انتظام الدوام بساعاته المحددة، وكذلك انتظام الملاكات واكتمال نصاب الموظفين وجميع العاملين في المؤسسات الجامعية. فيما كانت نسبة الحضور في الاعوام السابقة لاتتجاوز ٢٠٪ أصبحت النسبة تكاد تكون ١٠٠٪باستثناء حالات شخصية او في المناسبات العامة. وهذا مؤشر جيد نستنتج منه بان المستقبل يبشر بالخير، وان الاوضاع تأخذ طريقها نحو الاستقرار. هناك مسألة مهمة لابد أن يعرفها الجميع وهي أن التدريسي يتعامل مع اشخاص يتأهلون من خلال الدراسة لخدمة المجتمع، وهنا مكمن خطورة هذه المسألة التي تدعونا الى التوقف عند امتيازات حصل عليها التدريسي، الا ان هناك عواملاً ماتزال تؤثر في الاداء، منها ان غالبية الملاكت التدريسية بحاجة الى التدريب والتطوير، خاصة اذا علمنا بانهم حصلوا على شهاداتهم ودرجاتهم العلمية في داخل العراق. وكما يعلم الجميع فالعراق ومنذ اواخر عام١٩٩٠من القرن المنصرم وحتى الان عانى ومايزال يعاني ازمات كثيرة، بدءا بالحصار ومرورا بالحروب التي اعقبت حرب الخليج الاولى، ووصولا الى الارهاب والعنف الطائفي. كل هذا ادى الى انقطاع التواصل مع العالم المتقدم، وبات من الصعب الحصول على المعلومة العلمية او المصدر العلمي. وهذا ترك آثارا سلبية في اعداد وتهيئة الاستاذ الجامعي، ويتطلب الأمر بذل جهود استثنائية من اجل الارتقاء بالواقع الجامعي، سواء كان ذلك من وزارة التعليم العالي والبحث العلمي او المؤسسات المعنية بالشأن التعليمي في البلد».

الوضع في هذا العام افضل بكثير من العام الماضي وبدلالة انتظام الدوام بساعاته المحددة، وكذلك انتظام الملاكات واكتمال نصاب الموظفين وجميع العاملين في المؤسسات الجامعية. فيما كانت نسبة الحضور في الاعوام السابقة لاتتجاوز ٢٠٪ أصبحت النسبة تكاد تكون ١٠٠٪باستثناء حالات شخصية او في المناسبات العامة